العامل المادي عند ابن خلدون

جاسم محمد جاسم
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
قسم التاريخ - كلية التربية
جامعة كركوك

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

عدّ ابن خلدون العامل المادي ضمن فلسفته للعمران ، شرطاً مهماً من شروط نمو الحضارة الإنسانية وازدهارها ، من خلال الاجتماع الإنساني ، المحفز لذلك العمران ، مع ملاحظة ان ذلك الاجتماع الانساني تطور من اجتماع ذات تكافل بدائي بسيط بين الافراد والجماعات الى اجتماع انساني اصبح فعالاً وقادراً على بناء حضارة وعمران ٠ وما رافق ذلك التطور ضروبْ من عصبيات للبشر بعضهم على بعض و ما نشأ عن تلك العصبيات من الملك و الدول من خلال الحاجة(حاجة البشر) أبان ذلك التطور الوازع(السلطة) التي لها شروطها ومهامها وغايتها ، التي تقوم على تنظيم ألاعمال و المساعي من اجل الكسب و المعاش والعلوم و الصنائع الذي يمثلَ جانباً من ذلك العمران ، وعليه فان ما يرافق ذلك العمران من خصب العيش والدعة والترف والراحة ، والذي يحمل في طياته اثاراً بعيدة تُذهب خشونة البداوة والعصبية و البسالة، لدى الاجيال اللاحقة ممن تتولد لديهم (لدى تلك الاجيال) نوعاً من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم في الأمور الضرورية ، إلى أن تنقرض العصبية فيأذنون بالانقراض، فبقدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء ٠و عليه فإن عوارض الترف والغرق في النعيم تؤدي إلى انقراض العصبية القبيلية والعجز عن المدافعة والحماية ، فيصبحون طعمةً سهلة لسواهم من الامم٠ مع ما يتداخل لذلك الترف من أسباب منها ما يتعلق بسيولة الذهب والفضة من الوفرة والقلة ، تؤثر في اقتصاد المجتمع والدول، لكونهما الأصل

للموازين النقدية كالدراهم والدنانير، فضلاً عن كونهما وسيلة ضرورية للسلع الموزونة ، تطلب الأمر معرفة أوزانها والأصول الذي استندت عليها تلك الموازين.

اولاً : التعريف بابن خلدون (٧٣٣ - ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦م) :

ابن خلدون : هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحيم الحضرمي المغربي المالكي المعروف بابن خلدون ولد سنة (٧٣٣هـ/١٣٣٢م) ، برع في العلوم وتقدم في الأدب والكتابة ، ورحل إلى غرناطة سنة(٧٦٩هـ/١٣٧١م) ، ثم تولى الكتابة بفاس ، ثم رحل إلى مراكش وتنقلت به الأحوال إلى أن رجع إلى تونس سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٩م فأكرمه سلطانها، ثم ذهب إلى المشرق الاسلامي في شعبان سنة٧٨٤هـ ثم ولي قضاء المالكية بالقاهرة ، وكان ممن رافق العسكر الشامي إلى تيمورلنك ، الذي أعجبه كلام ابن خلدون وبلاغته ، صنف ابن خلدون كتابه التاريخي الكبير في سبع مجلدات ضخمة ظهرت فيه فضائله وبان فيه عن براعته ، توفي في ١٥ رمضان سنة(٨٠٨هـ/١٤٠٦م) (١).

ثانياً : عصر ابن خلدون :

يصرح ابن خلدون في كتابه المقدمة بان التغيرات العميقة التي طرات على نواحي الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في بلدان المغرب العربي خلال الحقبة الواقعة بين القرنين الخامس والثامن للهجرة /الحادي عشر والرابع عشر للميلاد كانت السبب الذي حفزه الى كتابة تاريخه المعروف بتاريخ العبر وديوان المتبدأ والخبرفي ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر بقوله:((وانا ذاكر في كتابي هذا ما امكنني منه في هذا القطر المغربي اما صريحا او مندرجا في اخباره وتلويحا))(٢) ٠ حيث اثرت تلك الظروف في تكوين وبلورة ارائه ومعتقداته في كتابه العبر(٣) ٠

ثالثاً : اهمية العامل المادي في مراحل قيام الدول وتعاقب الحضارات :

لقد ادرك ابن خلدون اهمية العامل المادي في العملية الشاملة لقيام الدول والحضارات وانهيارها، وذلك بقوله : ((إعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم في المعاش فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري)) (٤) ، وبذلك فان الرحلة الى المعاش من اهم العوامل الفعالة عند ابن خلدون في مجمل الجهد المتواصل لابناء القبيلة للارتقاء باحوالهم والانتقال بالجماعة من طور الى طور ، بداوة ، حضارة ، انهيار ، وفي فعالية الارتقاء وما يتعلق بفعالية الترف فيه ففيه جانبين ، احداهما ايجابي والاخر سليبي:

- الجانب الايجابي :

في أن الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها و السبب في ذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك و الترف كثر التناسل و الولد والعمومية فكثرت العصابة و استكثروا أيضاً من الموالى الصنائع و ربيت أجيالهم في جو ذلك النعيم و الرفه فازدادوا به عدداً إلى عددهم وقوة إلى قوتهم بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد فإذا ذهب الجيل الأول و الثاني و أخذت الدولة في الهرم لم تستقل أولئك الصنائع والموالى بأنفسهم في تأسيس الدولة و تمهيد ملكها لأنهم ليس لهم من الأمر شيء إنما كانوا عيالاً على أهلها و معونةً لها ، فإذا ذهب الأصل لم يستقل الفرع بالرسوخ فيذهب و يتلاشى و لا تبقى الدولة على حالها من القوة(٥).

- الجانب السلبي :

غاية العمران هي الحضارة و الترف و أنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات. بل نقول إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة و الترف هي عين الفساد لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منافعه و دفع مضاره و استقامة خلقه للسعي في ذلك(٦)٠

رابعا : ذكر الذهب والفضة كأصل من تحصيل المعاش و ما يتعلق بهما من اوزان لانواع النقد المادي :

ذكرَ ابن خلدون في مطلع كلامه عن الذهب والفضة ((بأن الله تعالى خلق الحجرين المعدنيين من الذهب و الفضة قيمة لكل متمول،و هما الذخيرة و القنية لأهل العالم في الغالب)) (٧) ٠

١- الدرهم :

ورد ذكر الدرهم في القران الكريم في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾(٨) ٠ ولأهمية مقدار الدرهم الشرعي وتعلق الكثير من الأحكام التي وردت بها مقدرات شرعية كالزكاة والانكحة والحدود وغيرها ، فقد تعرض ابن خلدون لذكر الدرهم الشرعي ،الذي جرى عليه الإجماع منذ صدر الإسلام وعهد الصحابة رضي الله عنهم (٩)، باعتماد زنة العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب (١٠) ، ولما كان المثقال من الذهب يساوي دينارا واحدا من الذهب المضروب فان احتساب وزن درهم الفضة الشرعي من دينار الذهب يكون على النحو الأتي :

٧÷١٠= ٠,٧ جزء من دينار الذهب حسب رأي ابن خلدون (١١)٠

والراجح أن ذلك النوع من الدرهم هو الذي كان سائدا في تعاملات العرب المسلمين اليومية، حتى عهد الخلافة الراشدة ، مع ملاحظة بان النوع من الدرهم الذي كان مستعملاً آنذاك كان يختلف من حيث الوزن الشرعي عن غيره من الدراهم الأخرى الذي تعامل به المسلمون خارج شبه الجزيرة العربية ، في سواد العراق وشمال الحجاز ومشارف الشام ، إلى أن تم تحديد وزنه الشرعي الأنف الذكر فيما بعد ، وذلك لوجود نوع أخر من الدرهم سمي بالدرهم الجاهلي(١٢)٠

٢- الدرهم الجاهلي :

من الموازين التي كانت متداولة بين العرب المسلمين الدرهم الجاهلي ، والذي كان على أنواع (١٣)، ثم جعلوا الوزن الشرعي بينهما ست دوانق، فكانوا يوجبون الزكاة في مائة درهم خمسة دراهم و سطاً و قد اختلف الناس هل كان ذلك من وضع الخليفة عبد الملك بن

مروان (٦٥-٨٧هـ/ ٦٨٤-٧٠٤م) أو إجماع الناس بعد عليه (١٤) ، والراجح أن تحديد وزن الدرهم الجاهلي كان في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، لتعلق تحقيق الإيفاء للبعض من الحقوق الشرعية بهما ، كالزكاة والحدود والانكحة ، وذلك لاتجاه الدولة الأموية على عهده نحو تحقيق تكاملها الاقتصادي في الداخل والخارج(١٥) ، بعد أن كان مجهولا من حيث الوزن المتبع في مختلف الأمصار الإسلامية في عهد الصحابة رضي الله عنهم (١٦) ٠

٣-الدانق :

من محددات الوزن الشرعي للدرهم الدانق(١٧) ، الذي هو سدس الدرهم (٠،٦) (١٨) ، ولما كان وزن الدرهم (٠،٧) من دينار الذهب فالدانق الواحد بعادل= ٠،٤٢ جزء من دينار الذهب المضروب (١٩) ٠

٤- الأوقية :

الأوقية من الموازين الشهيرة التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية ، ولما كانت مكة المكرمة مركزا للحركة التجارية فيها قبل الإسلام وبعده ، فقد اعتمد العرب المسلمون على الأوقية كمقدار من الموازين التي كانت معتمدة لديهم ، من ذلك فقد كان صداق الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم لأزواجه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن اثنتي عشرة أوقية ونشا ، لقول السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما : عن محمد بن إبراهيم، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ؛ أنه قال: سألت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم:كم كان صداق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت: كان صداقه لأزواجه اثنتي عشرة أوقية ونشا. قالت: أتدري ما النش ؟ قال: قلت: نصف أوقية. فتلك خمسمائة درهم. فهذا صداق رسول الله صلى الله عليه وسلم لأزواجه امهات المؤمنين رضي الله عنهن(٢٠) ٠ ولما كانت الأوقية أربعون درهما من الفضة فان مقدار الأوقية الواحدة بميزان الذهب يساوي :

٠،٧×٤٠=٢٨ جزء من دينار الذهب حسب رأي ابن خلدون(٢١) ٠

٥- المثقال :

يرتبط ذكر المثقال مع ذكر الذهب ،كون المثقال هو الذي يحدد وزن الذهب ، لما يحويه من ناحية الوزن لحبات الشعير التي تشكل بمجوعها المعلوم المثقال ، وهو ما يساوي اثنتان و سبعون حبة من الشعير، وبذلك يكون وزن المثقال الواحد من دينار الذهب المضروب على النحو الأتي:

٧٢ حبة شعير = مثقال واحد من الذهب

٥٥ حبة شعير = درهم فضة = (٠،٧) سبعة أعشار دينار الذهب

٥٥× ٠،٧ = ٣٨٥ جزء من دينار الذهب حسب رأي ابن خلدون (٢٢) ٠

٦- الدينار :

ذكر الدينار في القران الكريم في قوله عزوجل ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ ﴾(٢٣) وزن الدينار باثنتين و سبعين حبة من الشعير الوسط ، بالإجماع (٢٤)٠ ولما كانت الأمصار الإسلامية متفاوتة في البعد والقرب من دور السكة الرئيسة ، فوزن الدينار أيضا تفاوت في الوزن من مصر لأخر(٢٥) ٠

٧- السكة :

و هي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة و يضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرةً مستقيمةً(٢٦) و لفظ السكة كان اسماً للطابع و هي الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها و هي النقوش الماثلة على الدنانير و الدراهم ثم نقل إلى القيام على ذلك و النظر في استيفاء حاجاته و شروطه وهي الوظيفة فصار علماً عليها في عرف الدول و هي وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات و يتقون في سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة (٢٧) ، و كان ملوك العجم يتخذونها و ينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بها، و لما جاءالإسلام فان العرب كانوا

يتعاملون بالذهب و الفضة وزناً (٢٨) ،كانت دنانير الفرس و دراهمهم بين أيديهم و يردونها في معاملتهم إلى الوزن و يتصارفون بها بينهم إلى أن تفاحش الغش في الدنانير و الدراهم لغفلة الدولة الاموية عن ذلك و أمر الخليفة عبد الملك (٦٥-٨٦هـ/٦٨٤-٧٠٤م) للحجاج (٧٥-٩٥هـ/٦٩٤-٧١٣م) بذلك (٢٩).

خامساً : دور الانتاج العمراني في الكسب المادي :

يرى ابن خلدون بانه بالامكان جلب النقد لاي قطر من الاقطار من خلال تنشيط الاعمال الاقتصادية والانشطة التجارية للافراد والجماعات مشتركين متعاونين ذلك ((أن الأموال من الذهب و الفضة و الجواهر و الأمتعة إنما هي معادن و مكاسب مثل الحديد و النحاس و الرصاص و سائر العقارات و المعادن. و العمران يظهرها بالأعمال الإنسانية و يزيد فيها أو ينقصها و ما يوجد منها بأيدي الناس فهو متناقل متوارث و ربما انتقل من قطر إلى قطر و من دولة إلى أخرى بحسب أغراضه)) (٣٠)٠

سادساً : العناية بالعمران لديمومة النشاط الاقتصادي :

اذ أن ما يوفره عمران الأقطار بتعدد الأمم في جهاته و كثرة ساكنيه ادى الى اتساع أحوال أهله و كثرة أموالهم و أمصارهم و قوة دولهم و ممالكهم(٣١). وذلك من خلال كثرة الأعمال في العمران و كثرته فيعود على الناس كسباً (٣١) ٠ ومثال ذلك بأقطار المشرق مثل مصر و الشام و العراق و الهند و الصين كلها واقطار ما وراء البحر الرومي(البحر المتوسط) فعظمت تلك الاقطار لما كثر عمرانها بكثرة المال فيهم و عظمت دولتهم و تعددت مدنهم و حواضرهم و عظمت متاجرهم و أحوالهم(٣٢).

سابعاً : دور الفائض المحلي في تنشيط التجارة الخارجية وكسب النقد :

ان ما اوضحه ابن خلدون من العلاقة بين كمية النقد وبين القدرة الانتاجية في الدولة ، واثر تلك القدرة الانتاجية على عمرانها ، يبين ان ما اوضحه ابن خلدون من العلاقة تلك بين النقد والانتاج ؛ يضع ابن خلدون في الركب الاول والسباق على المفكرين التجاريين ، في تحليل وظيفة النقد(٣٤)٠ ومنهم الاقتصادي الانكليزي ادم سمث في كتابه "بحث في طبيعة

ثروة الأمم وأسبابها" عام ١٧٧٦ م ، الذي يرى بان التجارة الخارجية انما هي تصريف الفائض عن الاستهلاك المحلي (٣٥) ، في حين ان ابن خلدون كان اوضح بان التجارة انما تكون لتبادل المنفعة (٣٦)، فتجار أهل المشرق و ما هم عليه من ((أحوالهم٠٠٠في باب الغنى و الرفه غرائب تسير الركبان ٠٠٠ و يحسب من يسمعها من العامة أن ذلك لزيادة في أموالهم أو لأن المعادن الذهبية و الفضية أكثر بأرضهم أو لأن ذهب الأقدمين من الأمم استأثروا به دون غيرهم و ليس كذلك فمعدن الذهب ٠٠٠ في هذه الأقطار إنما هو من بلاد السودان و هي إلى المغرب أقرب. وجميع ما في أرضهم من البضاعة فإنما يجلبونه إلى غير بلادهم للتجارة. فلو كان المال عتيداً موفوراً لديهم لما جلبوا بضائعهم إلى سواهم يبتغون بها الأموال (٣٧) ٠

هوامش البحث :

(١) : المزيد عن ابن خلدون ينظر :ابن حجر، ابو الفضل احمد بن علي العسقلاني ، إنباء الغمر بأنباء العمر ، (حيدر آباد الدكن : ١٩٦٧م)،ج١، ص٣٢٢ ٠

(٢) : ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، المقدمة ، تحقيق : درويش الجويدي ، (بيروت : ٢٠٠٨م) ، ص ٣٨ ٠

(٣) : عبد الرزاق مسلم ماجد ، دراسة ابن خلدون في ضوء النظرية الاشتراكية ، (بغداد : ١٩٧٦م) ، ص ١٧ ٠

(٤) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص١٤٤ ٠

(٥) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص١٦٣ ٠

(٦) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٤٦ ٠

(٧) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص٣٥٤ ٠والقنية : تعني المال المدخر(ينظر : اشرف طه ابو الدهب ، المعجم الاسلامي ، (دار الشروق : القاهرة : ٢٠٠٢م) ، ص ٤٨٠ ٠

(٨) : سورة : يوسف : الآية ٢٠ ٠

(٩) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤١ .

(١٠) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤١ .

(١١) : علي جمعة ، المكاييل والموازين الشرعية ، (دار الرسالة ط٢: القاهرة :٢٠٠٩م) ، ص٩ .

(١٢) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤١ .

(١٣) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤١ .

(١٤) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤١ .

(١٥) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤١ .

(١٦) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤١ .

(١٧) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤١ .

(١٨) : ينظر : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤١ .

(١٩) : جمعة ، المكاييل ، ص ١٣ .

(٢٠) : مسلم ، ابي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم ، كتاب النكاح ، (بيت الافكار الدولية للنشر والتوزيع الرياض : ١٤١٩هـ) ، رقم الحديث (١٤٢٦) .

(٢١) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤١ .

(٢٢) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤١ .

(٢٣) : سورة : آل عمران : الآية :٧٥ .

(٢٤) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤٢ .

(٢٥) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٤٢ .

(٢٦) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٠٢٣٩

(٢٧) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٠٢٣٩

(٢٨) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٠٢٣٩

(٢٩) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٣٩-٢٤٠ .

(٣٠) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٦٠ .

(٣١) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٣٩ .

(٣٢) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٣٨ .

(٣٣) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٣٩ .

(٣٤) : فوزي عطوي ، الاقتصاد والمال ، (دار الفكر العربي : د٠ت : د٠ م) ، ص١١٩ .

(٣٥) : عطوي ، الاقتصاد ، ص١١٩ .

(٣٦) : عطوي ، الاقتصاد ، ص١١٩ .

(٣٧) : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٣٩.